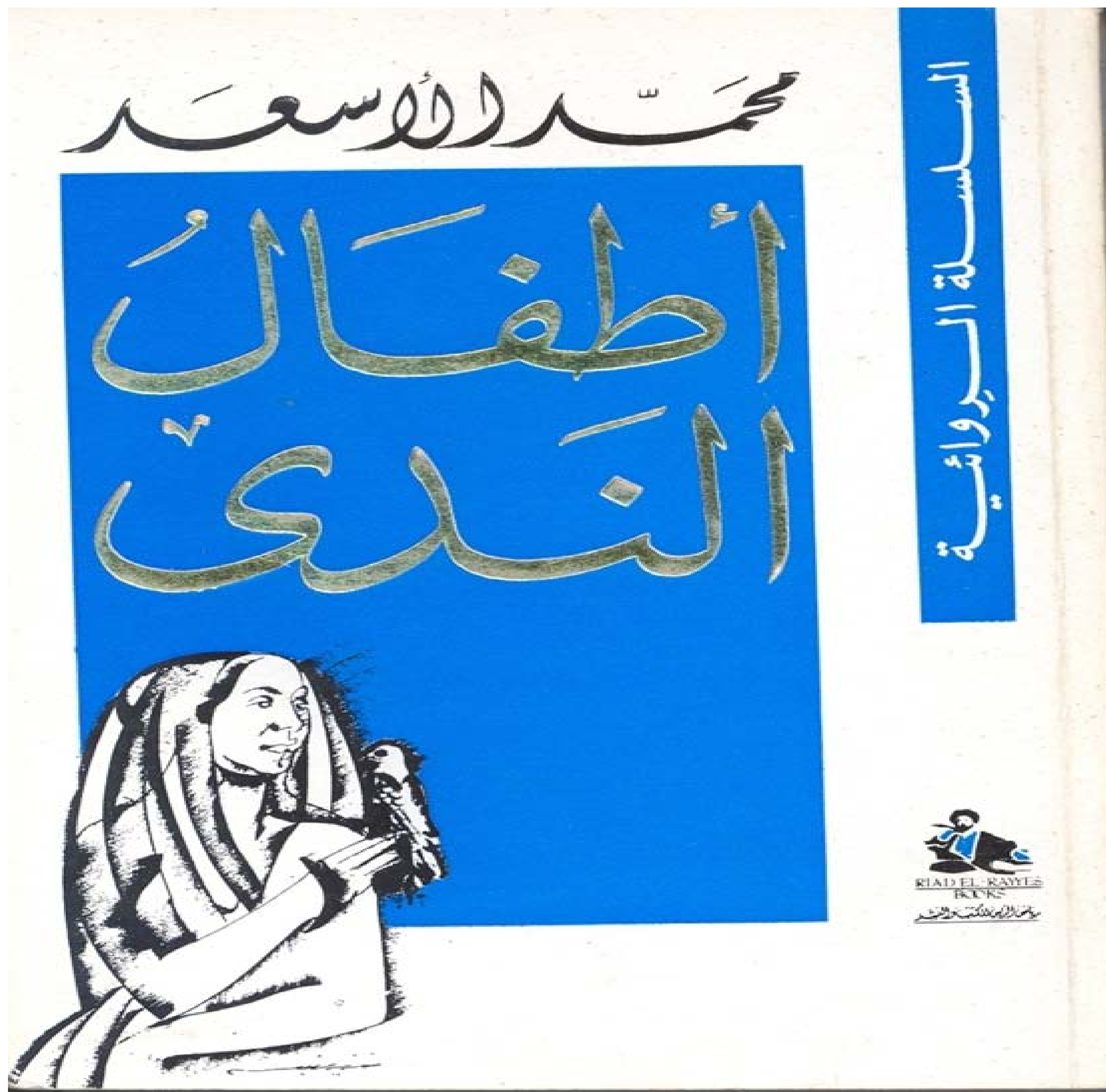

محمد الأسعد
أطفال الندى
السلسلة الروائية
RIAD EL-RAYYES BOOKS

محمد الأسعد

أطفال الندى

رواية

*صدرت الطبعة العربية الأولى
عن رياض الريس للكتب والنشر
لندن، سبتمبر 1990
*تُرجمتْ إلى الفرنسية (آلبن ميشيل) 2002
*ترجمتْ إلى اليونانية (الكساندرية) 2003
*تُرجمتْ إلى البرتغالية (كامبو داز ليتراس) 2005
*تُرجمتْ إلى العبرية (بيرديس) 2005

1

على قمةٍ شبه مستويةٍ في النهاية الجنوبية لجبل الكرمل، تربض قرية أمّ الزينات الفلسطينية. ويمكن للإنسانِ أن يأتيها من عدة طرقٍ بعكس ما تذهبُ إليه كتبُ الموسوعات التي تصرُّ على أن ثمة طريقين إلى ارتفاعها البالغ 317 متراً عن سطح البحر، الأولُ طريقٌ معبدٌ، 38 كم، يصلها بحيفا عبر جبل الكرمل، والثاني طريقٌ طوله 24 كم عبر مرج بن عامر.

الطرقُ إلى أم الزينات كثيرة، ويجيد القرويون إيجاد الطرقِ عبر الوعر ونباتِ الصبر والزعرور، فعلى مبعدةٍ منها يمتدُّ الطريقُ الوعرُ إلى أم الدرج، وهي نبع ماء يرتبط اسمها بمعركة خاضها الثوار، 1936، ضد القوات البريطانية. وإلى جنوبها يستطيع القروي أن يذهب إلى أم الشوف وأم الفحم متنقلا بحرية بالغة، بعيداً عن الطرقِ المعبّدة. وقد أصبحتْ كلّ الطرق بفضل التمكن الفلاحي تقود إلى أمّ الزينات وتنطلق منها. أما وادي الملح المجرّد من الشجر، فقد ظل معبراً يتذكره الفلاحون جيداً في طريقهم إلى شرق فلسطين، وذلك قبل أن يمتليء بالشجرِ وفقَ نبوءة الشيخ حمزة.

كل هذه الطرق والأماكن يرتبط بالأحداث، ليس هناك مكانٌ لايرتبط بالذاكرة، بحدث ما. ولو أُتيح لنا أن نرصد تفاصيلَ الأحداث والأماكن عبر زمنٍ يمتدُّ إلى أبعد من جيل أو جيلين، إلى مئات الأجيال، لكانتْ من كل هذا ملحمة تشهد بأن التاريخ الإنساني موجزٌ إلى حدٍ كبير في كتب المعلوماتِ والموسوعات.

إنها قريةٌ صغيرة تمردتْ كما تقول التواريخ الرسمية للإستيطان الصهيوني على "سلطة الدولة"، أي على قرارِ التقسيم الذي أصدرته الأمم المتحدة، وجعل هذه القرية جزءاً مما سمّوه "إسرائيل". ومثل كلّ قرارات الموسوعات والتواريخ الموجزة، جاء القرار ليطمس كلّ تفصيلٍ وكل ملمحٍ إنساني خاص بهذه البقعة الصغيرة. ولكنني أتذكرُ بأن جدّي كان هناك في سنةٍ من سنواتِ هذا القرن العاصف، ربما في العشرينات، وقد استيقظ ذات صباح مع الفجرِ وصياح الديكة لينزل إلى حيفا. وبعد أن أعدّ حصانه، اتكأ على مسندٍ في غرفة الضيوف يشرب قهوته ويدخّن لفافة تبغهِ الأولى. وكما لو كان الأمر حدثاً في أسطورة، استبطأته جدّتي، وجاءت تنبههُ إلى أن الشمسَ قد ارتفعتْ وبدأت أمواجُ البحرِ تتلألأ أمامَ حيفا الراقدة في السفح، فوجدته مازال متكئاً وقد مالَ برأسهِ جانباً؛ لقد كان ميتاً.

وتقول أمّي إن حزنَ الجدّة عليه كان عظيماً، فقد كان شخصاً لايُعوض إلى درجة أنها لطمتْ صدرها بالحجارة.

جاء القرارُ ليطمس التفاصيلَ وتفاصيل التفاصيل، أي حتى تلك التي التقطتُها، أنا الصغيرُ كما يلتقط الإنسانُ حلماً، فلا يجد في يدهِ إلا صوراً.. ولاحركة.. صورة من هنا.. وصورة من هناك. ولكنني أسيقظُ بعد كلّ هذه السنوات وتتحركُ فيَّ قريةٌ كاملة بكل طرقها عارفاً أن الكتبَ المدرسية لا تصف

إلا طريقاً أو طريقين، ولكن أهلنا كما يبدو يعرفون مئات الطرق التي تصلُ إلى أم الزينات أو تنطلق منها.

بئرُ الهرامس.. كم سمعتُ هذا الاسمَ يترددُ على الألسنة، وخاصة حين تنطقه أمّي مشفوعاً بحادثة حدثتْ هناك! لايعرف القروي أن يقصّ حدثاً إلا مشفوعاً بمكان. وحتى الأزمنة لاتقاس بالأرقامِ المجردة، بل بالأحداثِ الحيوية.. بسنوات الحصاد والجفاف.. والثورة.. والفتنة.. ومجيء الإنكليز لتطويق البيتِ وتخريب مؤونة الصيف والشتاء.. حين خلطوا الشيدَ بالزيتِ والقمحَ بالتراب.. بل وطاردوا الدجاج ومعسوا رأسَ بعضه بالشيد.

كان بئر الهرامس يُذكرُ بحنانٍ لاأدرك مصدره.. أنا الذي لم يذهب إليه يوماً. ولكنني أتمثلهُ ليصبح جزءاً من ذاكرتي، وليصدمني اسمه حين أقرأه في الكتبِ مكتوباً هكذا.. بئر الحرامس. كم هو غريبٌ هذا الاسم.. ومحتلٌ.. إلى درجة أنني لاأترددُ في تشبيه الاسم بمستعمرة تقامُ مكان قرية الطفولة. وأقرأ أن المستوطنين الصهاينة بعد أن هدموا قريتنا أنشأوا إلى جوارها على بعد كيلو متر واحد مستعمرة أطلقوا عليها اسمَ إلياقيم. اسم مغلقٌ لايعني شيئاً. ولا أعرف كيف تبدو هذه المستعمرة الآن، ولكن كل ما أعرفه أن قريتنا ما زالتْ أسس بيوتها ماثلة وقد عرّشتْ وامتدتْ فيها وحولها أشجارُ الصبر والزيتون والزعرور البرّي. إنها مقيمة هناك، تتكاثفُ على أرضها وأحجارها الأشجارُ لتكوّن غابة. ولكن ما أن تحترق هذه الغابة ستظهر واضحةً بيوتُ القرويين والطرقُ التي تؤدي إلى القرية.. تلك المعبّدة وغير المعبّدة.
مرحى للكاتب الاستيطاني إبراهام يهوشع الذي رأى خلال كوابيسهِ الكثيرة قريتي وقد ظهرتْ بعد أن احترقتْ الغابة. لقد كان لدى هذا المستوطن من الوقتِ ما مكّنه من أن يحلمَ حلمي نفسه في وقتٍ كنتُ فيه لاجئاً طمسوا تفاصيله وتفاصيلَ مَنْ حولهِ.

أليسَ من حقي أن أستعيدَ تفاصيلي من الكتب.. ومن حلم الآخرين الذين تحدّثوا عني ورأوا رؤياي قبل أن أصلَ إلى سن الرشد؟ أليسَ من حقي أن أعترض على قراراتِ الأمم المتحدة التي تجهلُ اسمي واسمَ جدّي.. بل وتجهلُ أن أم الزينات لايُعرفُ تاريخها كما لايُعرفُ تاريخ الوردة؟.

لقد قرّروا لنا طريقاً أو طريقين، ولكن هنالك العديد من الطرق. فما أن تبتعدعن قريتنا المفروشة كراحةِ اليد على هذه القمة الواطئة جنوبي الكرمل وتنزل إلى أحراشِ الزيتون حتى تكتشف هناك بيتاً أو بيتين أقيما في قلب الخضرة، وبعدهما تتشعبُ الطرقُ جنوباً وشمالا وشرقاً وغرباً.. وبين بين. وحين كان الطريقُ المقبلُ من حيفا يمرُّ إلى جانب بيتنا ويصعدُ إلى البلد يتوقف الباصُ الوحيد المعروفُ هناك، وينزلُ منه أخي الكبير آنذاك، ويهرعُ الكلبُ السلوقي الذي أحببناهُ.. وكنا نتجرأ ونمدُّ أيدينا الصغيرةَ في فمه اللاهث، فيمنح الذاكرة شيئاً من الحيوية. لقد كان ذاك دمهُ حين عاد أحد القرويين واختبأ في بيتنا بعد احتلال أم الزينات. وقال في روايته: يبدو أنهم نقلوا بعض قتلاهم إلى بيتنا في ليلة الاقتحام. وقالتْ أمّي: لا.. إنه كلبنا الذي لم يجد مكاناً يذهب إليه فعادَ إلى البيت ويبدو أنهم أحسّوا بحركته.. فقتلوه.

تحدّثني أمّي عن الطرق، فأكتشف عالماً آخر.. فطريقٌ يؤدي إلى البلدة صعوداً، وطريقٌ بين الصيافير يقود إلى وادي الملح، وطريقٌ إلى الروحة، ذلك الحقل الواسع من الخضرة، وطريقٌ إلى أم الدرج، وطريقٌ إلى البئر، وطريقٌ إلى عسفيا والدالية.. وأتيه بين التفاصيل، ولا أعرف حين يذكر

الاسمُ أهو عين أم بئر أم قرية أم مجرد بلاطات أم حقل زيتون أعطوه اسماً كما كانوا يعطون لأطفالهم أسماء.
كل شيء في وطني يمتلك اسماً بدءاً من الحجرِ ومروراً بالشجرة ووصولا إلى الفصولِ والثمار والإنسان. لاشيء يظل بلا تسمية بل أن مكاناً أو شيئاً واحداً قد يكتسب اسمين في وقت واحد. ويُخيل إليَّ أنا الذي يمتليء خيالي بالقرية وما حولها كما لو أن أهلي كانوا يسكنون غابةً من الأسماءِ فعلاً.. وطناً لايوجد في اللغةِ الفصحى، ولكنه أفصح منها بكثير، كلُّ ما فيه يسمّى ببساطة. نفهم إذن لماذا هذا الغيظ الاستيطاني من الأسماء الفلسطينية، فكل ما في فلسطين يحاصر الغريب حتى اليأس.. ففي كل مكان شجرة زرعها إنسان، وعند كلّ مرتفع قرية وتحت كل واد بيوتٌ متناثرة كما لو أنها وجدتْ منذ الخليقة. إقلبْ حجراً وتأملهُ.. وستجده ليس طبيعياً تماماً.. وأن آثار فأس أو إزميل قد مرّتْ عليه. لم تكن فلسطين برّيةً في يوم من الأيام.

كان الشيخُ حمزة الذي هو حيٌّ وإنساني أكثر من كل ملفّات الأمم المتحدة واستراتيجيات الغرب، قريباً لنا، ومنذ أن وعيتُ على اسمهِ وهو في سن الشيخوخة. يتحدثُ عنه أبي كما لو أن عمره تجاوز المائتي عام، ويعتقد الأهلُ أن هذا الشيخ كان قارئاً ومدركاً حتى أنه حدّثهم بأحاديث عجيبة عما سيحدث في مقبل الأيام، حدثهم عن وادي الملح الأجرد وكيف أنه سيصير غاباتٍ من الأشجار.

"كان يقرأ في الكتب".. بهذه العبارة التي ينطقها القرويون بتهيب، تشعر كم كانت هذه الروح زاخرة بذكرياتٍ غامضة عن قداسات ضائعة في هذا الوطن. لقد ذهبتْ الكتبُ والألواحُ، ولكن ظل تقديس الكتابة والكتابِ شيئاً غريزياً كما لو كان الأمر منطبعاً في الروح.. وكما لو أن الأبجدية قد وصلت منتهاها وترجمتْ نفسها إلى حياة، فأصبح الإنسانُ نصّاً.

شيخنا هذا ظلَّ هناك. وروى قريبٌ لنا أنه شاهده بع كل هذه السنوات بعد العام 1967، أي حين صار الوطن كله محتلا.. فسأله أن يقول له ماتقوله كتبه، فقد حدث كلُّ ما تنبأ به في الماضي.. ولكن ماذا عن المستقبل الآن؟.

قال الشيخ: "ألا ترى أن وادي الملح صار غابة؟ لم تكونوا تصدقون ما أقول. والآن إعلمْ أن العرب سينتصرون. وسيضعون يدهم بيد المسكوف. وعندها تدور الدائرة على اليهود".
وصمتَ الراوي متأملا وهو ينقل هذا الحديثَ كأنه يعود إلى القرية مرةً أخرى. كان أهلنا يؤمنون تماماً بالنبوءات. وكانوا يتحدثون عن تلك الكتب اليهودية التي حدثهم بها بعض اليهود، وفيها أخبارٌ عن انتصار إسرائيل إلى حين ثم يأتي وقتٌ تنقلب الآية وتنهزم إلى غير رجعة. وكانوا يؤكدون هذه القناعة بالإنتقال إلى القرية دائماً وإحيائها.
لم تكن الموسوعاتُ تعرفهم، ولا كتبُ السياسة تدرك ما يدركون، فكل منهم يعرف قريتهُ وينقلها إلى أبنائهِ بتفاصيلها وأسماءِ عائلاتها، بخلافاتها ومنازعاتها.. وسنواتها. ولكن الكتب الرسمية.. خذلتهم، فأهملتْ مئات الطرق التي تقود إلى قراهم، وتجاهلتْ أسماء الحجارةِ والأودية والشجر والناس، وعمّمتهم إلى درجة مخيفة بحيث تحوّلوا إلى مصطلح وإلى وجهة نظر، وليس وجهة النظر نفسها.

تحدّثني أمّي عن الطرقِ العديدة التي يمكن أن يسلكها القادمُ من كفر الشيخ والشوف وأم الدرج وأم الفحم إلى قريتنا. وأذكرها بذلك الفجر الذي وجدتني فيه أسيرُ في غمامةٍ يحيط بي أناسٌ يتنادون بين الصخور وهم يسيرون ضائعين في الضباب.. وتلك القطعة من الليلِ فوقنا تخترقها جمراتٌ حمراء، وذلك النعاس الذي يأبى أن يداعب العينين وهما تستيقظان على أشباحٍ تبرز في الظلام أو تتجمع

حول أضواءٍ مرتجلة.. فتفصّل كل شيء وتذكر المناسبة. وأدركُ أن ذلك الليل كان ليلَ خروجنا من أم الزينات بعد أن احتلها اليهود.

وتبدأ القريةُ بالظهور مجدّداً، وتحتشد بالأسماء والناسِ، وتمتدّ منها الطرق.

11

أتذكرهُ متربّعاً على الأرض، وبين يديهِ علبة التبغ يحدّقُ في البعيد بشواربه التركية الكثيفة وعينيه العسليتين الساهمتين. هكذا يحضر في الذاكرةِ من لا اسمَ له ولا أصلَ ولا بيتَ ولا صوت.
كان شيئاً من الماضي، يلحّ على الحضور دائماً، فكيف أعرّفهُ؟ اسمهُ لايرنّ.. مثل معدنٍ ثقيلٍ من الرصاص المعتم، لاأميّزُ فيه أي نقشٍ أو خطٍ، تقولُ عنه امرأةٌ ما أن مأساتهُ بدأتْ في أثناء الحربِ

العالمية الأولى فقد كان متزوجاً من جنّيةٍ ترافقهُ في كل مكان؛ تحفر له الخندق وتحميهِ من الرصاص، هذا الجندي العثماني الساهم الآن.. إذن هو شيء آخر غير هذه الصورة الساكنة.. ماعدا حركة يديهَ وهو يلفُّ لفافة التبغ.. وهو يدخنها، فيغطي الدخانُ الكثيفُ مثل غيومٍ وجههُ النحاسيَّ.. وشاربيهِ وعينيهِ الثابتتين في البعيد.

أراهُ متربّعاً.. ولكنه كان متحرّكاً في ماضيه البعيد، تقف إلى جانبهِ زوجته الجنّية وتحميه.. وفجأة ينقلبُ المصيرُ فيعود إلى قريتهِ، ليجد أن الجنّية قد سبقته. ولسببٍ مان نراها تهدم البيتَ على زوجته وأولاده.

تقول المرأةُ: "إنها تناديهِ ويهرعُ إليها. وكثيراً ما كان يهبُّ من نومهِ على صوتها ويندفعُ خارجاً. واعتدنا أن نربطه إلى سريرهِ بحبلٍ حتى لاينطلق وراءها".

لقد تحرّكَ في الذاكرة، وصار الرجلُ قصّة تروى بلسانٍ غيرهِ. وحين كنا صغاراً يحيطُ بنا الظلامُ وصوتُ المرأة الراوية، كان الرجلُ بشاربيهِ وعينيه العميقتين يتسيّدُ على خيال الصغار ويواصلُ حياته. ألهذا السبب، في انتقالهِ إلى الأسطورة، ظلَّ حيّاً؟! ترى ماذا كان اسمه واسم الآلاف الذين اعترضوا طريقَ الصغيرِ في خروجهِ من عتمة الماضي؟ إنه صورةٌ مثلما هي الصور العديدة ولكنه يبدو أشدّها وضوحاً، وتشبّثاً بالبقاء. إجعلْ من نفسكَ شيئاً قريباً من الأسطورة تستطع أن تعيش وتبقى شيئاً خارقاً يسقطُ خارجَ حافة النسيان.

ومع ذلك.. فكلّ شيء ينقطع إذ لاتمتلك تفصيلا آخر تضيفه إلى قصة الرجل.. عاشق الجنّية العجيبة التي دمّرتْ حياته وعقله، وجعلتهُ طافياً مثل جثةٍ ذهبية أو قناع لايشفّ عما وراءه.

ولكن هناك آخريبدو أشدّ إلفةً.. عجوزٌ يهتزّ من البردِ في مكانٍ أليفٍ تغطّيه بطانيةٌ وتحيطه رعاية عشراتِ الأيدي زالأحاديث والدفءِ.. تراه يمسك بيديه المرتجفتين صحنَ حساءٍ أو شيئاً شبيهاً بذلك.. وتسألُ من يكون؟.

تقولُ أمّي إنه جدّي.

وتندهش من ذاكرتي، وتحاول أن تذكرني بأسماءٍ وأحداثٍ أخرى. ولا أتذكر، وأترك لها أن تروي لي ماكان يحدث في ذلك الجزء من العالم الذي كنتُ فيه ولم أكن.

ذات يوم كما تقول أمّي ابتلعتُ فحمةً. نعم فحمة سوداء، وكدتث أختنق. ولكن إحدى الخبيرات بمثل هذه الحوادث استطاعت انقاذي. لاأتذكر.

ذات يوم انقضّتْ حيّةٌ من وراء السلسلة الحجرية، وأمسكتْ بأرنبة صغيرة من أرانب البيت من أذنها، وحاولتء أن تسحبها عبر السلسلة الحجرية، فلم تستطع، وأفلتتْ الأرنبة. يقول والدي: "كانت الأرنبة الصغيرة تنتفض وقد تحوّل لونها إلى أحمر داكن، فأسرعتُ إليها، وأمسكتها ثم كويتُ جبينها، وبهذه الطريقة نجت الأرنبة".

لاأتذكر..!

أنا أسيرُ الآن في أسطورة ولا أتوازى معها، وأحاول الاندماجَ فيها بحثاً عن خلودٍ خاص أو نوع من الحياة كان خامداً، وأسيرُ في طرقِ الأحداثِ التي كانت قبل ميلادي أو بعده. ويحدث كثيراً أن أحلم حلماً يكاد يكون دائماً عن عودتي إلى قريتي فيعود الأمواتُ أحياء، وأدهش كيف أنهم قالوا لي أن فلاناً ماتَ وإن فلاناً قد دُفن منذ زمنٍ طويل وإن قريتنا احتلتْ.. فكل هذا غير موجود في الحلم. ولكن في مرّاتٍ أخرى، يكون الحلمُ في الحاضر كما يبدو، فأراني وقد جئتُ إلى القرية واختلطتُ بهؤلاء المستوطنين اليهود، ونجوتُ من الحواجز بمعجزة.. إذ لاهويّة.. ولادليل شخصية من أي نوع أحمله. ويسيطر على جوّ الأحلام مناخٌ من الدخان. إنه مشهد تكرّرَ كثيراً. حرائق صغيرة في كل مكان. ربما كانت حرائق أكوامِ القمح بعد الحصاد، حيث تحرقُ أكوام القشّ لتكون سماداً في المواسم المقبلة، ويتحرك الناسُ في هذا الجوّ الشتائيّ مثل أشباح. بعيدون دائماً لا يتكلمون. حلمٌ زراعيّ لا أشك أنه يستعيد طقوساً كانت موجودة منذ آلاف السنوات.. حتى ولو لم أكن موجوداً آنذاك.. إذ يحدث كثيراً أن يعيش الإنسانُ أيام ماقبل ميلاده في الأشياء الباقية، ويتولاه شعورٌ غريبٌ وهو يقرأ نصّاً مؤرخاً في زمن لم يكن فيه موجوداً. ومع ذلك فبمجرد أن يمتلكه ويفهمه يتغلغل فيه إحساسٌ بأنه كان موجوداً.

ويحدث كثيراً أن يشمّ الإنسانُ رائحة ما، فتهبّ على ذاكرتهِ وكيانهِ عوالمُ منسيّة قد يكون صعباً تحديدها إلا أن الشعور الجارف بالحنين والغبطة يجعلها حقيقية في مكان ما. أليس للخرّوبِ الأسودِ مثل هذا الطعم؟

إنه يبعثُ بمجرد تذوقهِ عالماً كاملاً.. أماكنَ ووجوهاً ولحظات.. وكنا نحبه على شكل مربّى يسمى الرُبَّ، وتقفز إلى ذهني هذه الكلمة، فأفهمها مباشرةً. وتقول أمّي: "كنتُ أعمله لكم في الشتاءِ وأعمل أشياء كثيرة"، وتتنهد كما لو أنها تستيقظ من أسطورة ويسود الصمت.

في الصمتِ نشأتْ أشياء كثيرة. وأكاد اتخيّل أن الطرقَ المؤدية إلى قريتنا كان يتجوّل فيها الصمتُ وحدهُ.. عائلة من الصمت والهمسِ القليل.. حتى لايكبر الصغار فجأة ويقفزون من طفولتهم إلى مغامرة غير محسوبة، أو حتى يتسنى لنا حمايتهم من الجنّياتِ.. ومن ذلك الذي يستعاذ بهِ باسم الله.. ولكن ليس كلّ الكبار من العائلة.. وليسوا من المهتمين بحدائق غيرهم. وهكذا يحدث أن يخترق الصمتَ العائليَّ غرباءُ يكسرون مؤامرة إبقاء الصغار وراء الجدران.. أو يخترقه خيالُ الصغار أنفسهم، فيعيشونَ مقارنات ومشابهات عجيبة.

تقصّ أمّي حكايةً عن شاب ينعزل في الجبال، وتسميه دائماً أبو الشباب. وأشعر وأنا أصغي إليها أنها تعني أخي الكبير الذي ظل هناك في فلسطين لسببٍ ما لاأفهمه.

وحين تقصّ حكاية الحسناء الأصيلة، أحاول أن أجد حولي من تشير إليها، وكذلك أحاول اكتشاف من يكون ذلك الذي هجرَ أهلهُ وحمل حقيبة من الذهب باحثاً عن فتاة أحلامهِ. لاشيء يجري في القصص يمكن أن يكون خارج العام. ونشعرُ بهذا من لهجة القصة ونبرةِ الصوتِ والحشرجة، والبكاء أحياناً، فنحسّ نحن الصغار أن الأمر ليس أمر حكايةٍ تحكى.. بل هو أمرٌ يتصل اتصالاً حميماً بالراوية.

يقول أحد الأصدقاء: "إنكم تستنفرون ذاكرتكم دائماً، ونشعر حين يتحدث أحدكم أنه محتشدٌ حتى الحافة بكل ماضيهِ"، ويعني بذلك صديقنا خيري وآخرين تشتعل الذاكرة دائماً في أوديةِ وقمم أحاديثهم.

فماذا يحدث إذن لو يحضر كلُّ شيء من أدقّ تفصيل فيه، وينهارُ الفاصلُ بين الحكاية ومن يرويها؟ لسببٍ ما لاأدري كنهه، لم أستطع الاقتناع بأن قصص أمّي لم تكم مما حدثَ لها ولأهلها أو للجماعة القروية كلّها.. وخاصة بعد أن تحوّلتْ حياتُهم الماضية إلى قصص تروى.

كلُّ شيء يمكن أن يتحوّل إلى حدثٍ وقصة: الحجر والبيت، وهذه الزاوية من الكرم، وهذا الموسم، وذلك الشتاء، ولكن الوالد لايتحدث كثيراً، فما زال قانونُ الصمت هو الساري، أما الأم فكثيراً ما كانت تبدأ قصصها هكذا بلا مناسبة.. وحتى بلا حضور من يسمع أحياناً. إنها تتحدث وتروي أشياء لنفسها.. ربما، كأنها شخص آخر يخاطب آخر ويجادله. ويمكن أن يكون هذا هو سبب نزعة الحوار الداخلي التي نشأتْ معي، إذ يبدأ الحوار بموقف يخلق فيه الإنسانُ شخوصاً مع حوارهم، ويراقب الحوار أو يتدخل فيجادل ويتحاور، ويقيم مسرحاً خيالياً لحسابه الخاص. وغالباً ما يكون ماضينا هو هذا المسرح الذي يتم عليه تعديل وتحوير الماضي، وجعله أكثر واقعية وصدقاً وحميمية.

إن مسرحنا هو الماضي التام، ولكن كلَّ شيء فيه لم يُصادق عليه نهائياً.فما دام الممثلُ والمخرجُ والمشاهدُ هو شخصٌ واحد فيمكن التدخل وتوجيه المسرحية في أي لحظة. هكذا يُعاد بناءُ ماضينا بدون أن يعني ذلك أننا نفرض رغباتنا الأنانية. إننا نودّ أن نفهم العالم، أن نعيد توعية النفس بالرموز والإشارات، فكل شيء من الماضي يقود إلى الحاضر. إذن هو النبوءة التي صدقتْ.. هو الرمز الذي ألقى به هاتفٌ في سمع الصغير. وهاهو بعد أن كبرَ، يجد نفسه مسؤولاً عن تفسير الهاتف.

كان جمعُ النسوة يتحرك في دائرةٍ حول حفرةٍ في الأرض مع صوتِ عويل متواصل، وكل امرأة من النائحاتِ النحيلاتِ تبدو متشحةً بالسوادِ، منثورةَ الشعر، تلوّح بمنديل أو بشيء شبيهٍ بهذا. الصراخُ يصمّ الأذنين. ومن زاوية الصغير الذي ينظر، كانت النائحاتُ بطول النخيل، وأصواتهن تحشد الفضاءَ بالأنين.

لم يكن قد مرّ على تحوّلِ العالمِ إلى كلِّ ماهو غريب ومثير للتساؤل غير سنتين أو ثلاث. وكانت فلسطين هي القبر/الرمز الذي تدور حوله النائحات. إنه طقسٌ زراعي آخر لانبعاثِ الخصوبة من عمق الجفاف.

صديقنا الجندي التركي يصحو أحياناً، ويسمع جنّيةً تناديهِ، فيهبُّ وينطلقُ خارج البيت والكون. ولو لم يكونوا يربطونه بالحبلِ في إثناء نومهِ، أين كان يمكن أن ينطلق وأي مدى سيجري فيه إلى أن يصل إلى أمّ الزينات على السفح الجنوبيّ للكرمل؟ أعتقد أنه كان سيجري ويجري إلى أن ينتهي هناك، ليبكي عند جدار بيتٍ محطمٍ بينما تشرق عليه الشمسُ الدائمة.. شمسُ جنونه العظيم.

111

انا الآن أسيرُ في أسطورةٍ، ويتحدث فيّ المئاتُ الذين عرفتهم والذين لم أعرفهم، ويتزاحمون أحياءً وأمواتاً في هذه المدينة الغريبة التي أخلقها، ولا يتضحون تماماً، فبعضهم يتّخذ شكلَ أشجارٍ غريبة لم تنبتْ إلا في الطفولة، وبعضهم يتّخذ شكلَ التماثيل الصامتة التي لانراها إلا في المدنِ التاريخية التي طمرها الطوفانُ أو أحرقتها الحروب. وبعضهم يتحوّل إلى رائحة منتشرة في المكان.. رائحة نهر أو جبلٍ أو غابةٍ صغيرة ربما مررتُ بها يوماً.

وأصغي إلى تلك الأمكنة التي كنتُ فيها أو كنتُ أحدَ الذين نسيتُهم، وأنتبهُ إلى صوتِ ناي من القصبِ الأخضر بين مروجٍ خضراء، وأنا مختبيء مثل أرنبٍ صغير لاأحد يعرف مكانه ولا أحد ينتمي إليه أو هو لاينتمي إلى أحد. تلك كما أعتقد ماكانوا يسمّونها الروحة.. أتقع شرقاً أم غرباً؟ لاأحد يعرف، فلا جهات في الطفولة لأنها جهة واحدة. وأجهد أحياناً لرسم جغرافية المكان، فترتسم في الذهن مغاور جبلية أو أودية عميقة، ولاشيء مما تذكره الخرائط أو تهتم بتفصيله الموسوعات.

إن لنا كما يبدو كوكباً آخر هبطنا منه، ولنا أمّهات أخريات لاتتحدث عنهن مذكراتُ الرجالِ المشهورين. وحتى رجالنا الذين يعتقد والدي بعد عشر أو عشرين سنة أن الضباع ما زالتْ تأكل جثثهم، لايبدو أن أحداً أدرك لهم وجوداً.

إننا مكتفون بمعنى ما من كلّ شيء.. ومع ذلك فإن طرفاً من العالم يطلّ علينا، ونتحدث عنه ونتناقل أخباره كما لو كان شيئاً معزولاً عنّا.. إلا حين يترك جرحاً. هكذا كان الحديث عن الصديق البريطاني الذي نصحَ أخي بالرحيل إلى قبرص، ولكن والدي عارض الفكرة.. وقادته فكرته إلى طمس حياة كاملة كان يمكن أن تكون مختلفة.
تعلّقُ والدتي حزنها وأسفها على رفض فكرة قبرص بسببٍ أستشفهُ من لهجتها وهي تقصُّ هذه الحكاية، فلو لم تمتْ هذه الفكرة في وقتها لظلَّ لها بكرها: أخي الكبير.. ولم يقتنصه الموتُ بعد ذلك بخمس سنوات. أتراها كانتْ تحسّ بأن مصائرنا كان يمكن أن تختلف لولا هذا الرفض؟ لولا هذه الكلمة يقولها الوالدُ فتقود إلى موتِ الإبن الأكبر وإلى هذا الصمت العائليّ الكثيف الذي لايمكن اختراقه إلا بطفولة استثنائية وليس بطفولة مؤجّلة.

لقد تأجّل كلُّ شيء منذ تلك اللحظة كما يبدو، واللوم كلّه ينصبّ على الوالد الذي رفض الفرصة.. فرصة حياة بكرها، وفرصة الوعود التي لم تكن تعرف لها شكلاً، ومع ذلك كان يمكن أن تنقذها من هذا الحزن الصامت. وأعدها بيني وبين نفسي بأن أقف على سرِّ الموتِ، وأتجنب أن يحدث ذلك مرّة أخرى، فالموتُ لايبدو لي شيئاً مفهوماً. وما دام الأمر كذلك فلا بدّ أن نسترجع أمواتنا يوما ما. كم هم كثيرون إلى درجة لا يحصيها العد.

أنا متأكدٌ من أن ذلك الماضي كله موجودٌ في مكانٍ ما، فلا أحد يكبر في الماضي؛ الطفلُ يظلّ طفلاً.. والشيخُ يظلّ شيخاً.. والصبيّةُ تظلُّ صبيّة تماماً كما يحدث في الحكايات التي لا يكبر فيها الناسُ مهما تكرّرتْ.. وخاصة شخصياتها الرئيسية التي لايسمح لها الراوي بأن تغادر عالمها إلى عالمنا المزدحم بالذبولِ والموت.

تقول أمّي، حين حدثت معركة أم الدرج، حاصرَ الانكليزُ الثوارَ بسببِ خطأ ارتكبه أبو درّة، فقد طلبوا منه عدم المبيت، ولكنه أصرّ على البقاء بصوته الأخنب وغطرسته التي انتقدتها أمّي كثيراً.. وحين أشرقت الشمسُ كان الجميع محاصراً. وقال الانكليز.."اذهبوا واحملوا رجالكم"، وانصرفوا.. وجاؤا بهم مثل حزم الحطب على ظهور الجمال.

وأتخيّلُ قافلةً من الجمال وحزماً من البشر/الحطب، ولا أستطيع الوصول إلى سبب هذا التفجّع الذي تبديه أمّي.
"لم يكملْ اخي غير الصف السابع.. ولكنه كان ذكيّاً يجيد الانكليزية".. هكذا تروي أمّي طرفاً من حياة هذا الذي أصبحَ في ما بعد مصدرَ أسفٍ وحسرةٍ دائمة. واتذكّرُ أنني كنتُ أهرعُ، أو أن آخر كان يهرع إلى الباص المقبل من حيفا.. وأشاهد كلبنا السلوقيّ المسكين يقف على قائمتيه أمام باب الباص ويضع يديه في أحضانِ رجلٍ ينزل من الباص أو من سيارة ما لايتضح منها غير الرجلِ الذي يترجل.. والكلب الذي لايكاد يصبر فيقفز للقائهِ، وتنقطع الحركة، وتختفي الصورة كما لو أن أحداً أطفأ أضواءَ المسرح أو أوقفَ عرض الفيلم.

" وحينما كنتم صغاراً.." تكمل أمّي " ذهبتُ مرّة إلى البلد، وتركتكم في البيت برعاية أختكم الكبيرة وجاء الطوقُ والانكليز، فلم أستطع العودة. وحين عدتُ كان البيتُ مقلوباً. الزيتُ مخلوطٌ بالشيد، والدجاج ميتٌ، والطحين خلطوه بالتراب".

ويكمل أبي.."كان أخي الله يسهّل عليه هو السبب. فكم نصحته أن يتخلص من بندقيته، ولكنه كان يصرّ على الاحتفاظ بها. أكيد انهم رأوه وهو يخرج من البيت ويرميها بين الصبر عندما حدث التطويق.
وسألوني، لمن هذه البندقية؟ فقلتُ، أنا رجل بالكاد أستطيع أن أبصر فكيف لي أن امتلك بندقية؟ ولكن صوصة اللئيم قال، نعرف أنها ليست لك.. دلنا على صاحبها.

كان صوصة يهودياً في خدمة الانكليز وهو الذي حقّقَ معي".

ويختلط في حديث والدي المرحُ والإحساسُ بالزهو إذ لم يستطيعوا أن ينتزعوا منه كلمة عن البندقية رغم أنه لم يخف لومه لأخيه بسبب تلك الحادثة.. بهذه الطريقة يدخل إلى عالمنا الصامتِ أقرباء، ويكبر الكونُ شيئاً ما، فثمة أشخاص يحضرون بأسمائهم. واضيف بدوري إلى الجغرافية التي استطعتُ رسمها حتى الآن، واحدّد موقع بيت هذا الأخ الذي اختارَ ان يسكن قريباً منّا.. في وحشة الجبل، بعيداً عن بيوت أم الزينات.

كنّا في البرّيةِ نفسها. وقد انتقلت معنا هذه البرّيةُ القديمة. إن حديثنا عن الآخرين هو حديث عن كائناتٍ اخرى لاتكاد تشاركنا المصير.. وإن شاركتنا في بعض الطرقاتِ والمناسبات. وينتقل إليّ إحساسٌ بأننا مختلفون ما دمنا نتّخذ من الآخرين موضوعاً ونحكم عليهم ونَدين أو نبرّيء، فهذا خائنٌ.. وهذا جبانٌ.. وذاك كان رجلاً. وتتخذ أمّي من القصص وسيلةً لملء هذه المساحة من الحياة المؤجّلة، فأخي يتم تعليمه في الصف السابع ولو بالذهابِ إلى قرية أخرى ثم يبدأ العمل في حيفا، وتبدأ سيرته بالتداخل مع سيرة الانكليزي الذي هو في الحكاية صديقه، والذي يعرض عليه أن ينقله مع أهله إلى قبرص حين بدا أن كل شيء يسير إلى خراب.

ويرد اسمُ الانكليزي الصديق مرة أخرى حين تروي قصةً حدثت مع الخال المسلّح دائماً. هكذا يرد في الحكاية. بندقيته على كتفهِ، فمرّة يظهر في عداد الرجال الذين ينطلقون مع أبو درّة، ومرّة يظهر جريحاً، يضطر إلى الهرب إلى سوريا. ولكن تبقى صورته هذه.. صورة العائد وحده إلى البلد بعد أن احتلها اليهود في تلك الليلة. يقول أنه كان يعرف انكليزيا فذهب إلى بيته في حيفا وتسوّرَ عليه البيتَ ليلا بكامل عتاده، فدهش الرجل، وفاجأه بالسؤال.." ماذا تفعل هنا؟".

ويطأطيء رأسه، فقد كان طويلا، ويجلس إلى الانكليزي متسائلا.." وماذا تريدني أن أفعل؟" المقاتل الأخير ربما في هذه المنطقة المحتلة.. لعلّ هذا ما دار في ذهن الانكليزي وهو يدخّن غليونه ويتأثر ربما لهذه المخاطرة غير المحسوبة.
ـ ما الذي سيحدث الآن؟
ويبحث الانكليزي عن الكلمات المناسبة التي يمكن أن تصف لهذا القروي المسلح عمقَ مأساته. إنه أصبح بلا وطن، وأن عليه أن يرحل. ويدور في ذهن الانكليزي قرار الأمم المتحدة واعلان دولة اسرائيل الذي لم يسمع به الخال، ولم يعرف أنه كان موجوداً أصلا. ويتمتم محاولا تلخيص وتبسيط اللحظة الراهنة:

ـ هذه قضية أكبر منك.. قضية دول. لقد اتفقوا على كل شيء ولم يبق أمامك إلا أن ترحل.

أين كنتَ في تلك الليلة؟
كان هذا السؤال هو المحور الذي يدور حوله حديث الذين أجّلوا كل شيء، وأعطوا للمساحة المؤجّلة صيغة الحضور الدائم بتذكّر ما حدث. وتكتشف من رواية كل منهم أن سنواتٍ طويلة مرّتْ بدون أن يعرف أي منهم ماذا كان الآخر يفعل في تلك اللحظة وكيف تصرّفَ. وها هم يبدأون بتجميع الخيوط، لتسجيل كل شيء دفعة واحدة.

لقد تفرّقوا فجأةً، فكلٌّ منهم صار مسؤولا عن نفسه بطريقة أو بأخرى. ولكن من الخيوطِ المتجمّعة أدرك شيئاً مهماً، وهو أن أهل أمّ الزينات لم يذهبوا بعيداً، فالوالد يروي أنه انتقلَ إلى قرية أخرى. تقول أمّي إنهم ذهبوا إلى الدالية. اما لماذا لم يبقوا هناك فلأن اليهود أنذروا الدروز بأنه يجب ان لايبقى أحد من أهل أمّ الزينات بجوارهم. وتبدأ قصةُ قرية أخرى وانتقالٌ إلى مكان آخر على الطرقاتِ نفسها الممتدة من أمّ الزينات وإليها، وتظهر صورة غريبة لاأعرف كيف حدثت.. صورة طفل صغير يسير بجوار انسانةٍ مان والوقتُ ليل، والسماءُ تخترقها جمراتٌ حمراء.

وتعلّقت أمّي.."لقد مشيتَ مسافة طويلة بدون شكوى ولا تذمّر"
إنه أنا، إذن من كان يسيرُ في هذه الصورة بدون أن يعرف من أين وإلى أين.. وأين كانت نهاية المسير. المهمّ أنني هنا الآن، وأمّي هنا، وخلفنا مئاتث التفاصيل الغائمة التي لاتطفو عليها واضحة غير الحسرات. واشعر بالأمان والزهو. وأكتبُ في ما بعد.." لقد ولدتُ ماشياً على قدميّ إلى جانب انسانة مجهولة.. أو ولدتُ لأول مرّة سائراً تحت ليلٍ ما والرصاصُ جمرٌ يتتابع في السماء".
تقول أمّي.."مررنا بعين حوض فإذا تنغل باليهود، وصرختُ على البنات: اليهود.. اليهود. كن قد تسلقن الأشجار لقطف شيء من ثمار التين، فهبطن بسرعة"
وقالت الأخت الكبيرة.."كان الرصاصث يتطاير تحت قدميّ وأنا أركض بقوة".
لم تُصب بالطبع.. فهاهي تقصّ جزءا من الرواية، ولكن أمّي تتذكر كيف أنها راقبت الساحة الخالية بين البيوت وشاهدتْ هناك في الشمس شاباص جريحاص واثنين من الهاغاناه يجلسان في الظل. وكان الشابُ يتحرك ويزحف ليصل إلى الظلّ فيرغمه الاثنان على العودة والبقاء في الشمس.. كان ينزف وهما يضحكان.. ويشيران إليه وهو يسحب ساقه الجريحة ليتقي حرارة الشمس.

في أي الفصول نحن؟ وفي أي الأزمان؟ كل شيء يبدو كما لو أنه كان خارج هذا العالم، حدث يوماً.. ويحدث الآن.. وسيحدث غداً.

1V

سأقلب المعادلاتِ إذن، ليكون الأواخر هم الأوائل في هذه الرواية التي تشبه الأسطورة والأسطورة التي تشبه الرواية.
"إننا مثل أناس هذه الروايات".. تعلّقُ أمّي "وسيحكون عنّا كما نحكي الآن..".
ولكن هذه الأماكن كما يبدو أشدّ وحشةً وبعداً من أن يذكرها أحد، فبين الأودية، وعلى القممِ وعلى امتداد النظر وما وراءه، حيث لايصل الحسُّ ولا النظر، حدثت مئات وآلاف الحوادث وترددتْ أصداءُ آلاف الحسرات، ومرّتْ في أدغال هذا الصمتِ وجاستْ خلاله آلاف الخطوات. ولا أجد شيئاً من هذا في الكتابة التي تزدهر وتحتل مكان هؤلاء الأواخر دائماً.

إنهم الأواخر دائماً، يختلف تاريخهم وتختلف رواياتهم، وهم يتجمعون ويقصّ كل منهم طرفاً مما أدركه.

يقصّ الحاج أبو خليل الذي هو يدان ترتجفان ومسبحة، وابتسامة طفل، بصوتٍ رفيع قصة تلك الخيانة الشهيرة التي أدركها حين كان جندياً تركياً على فراش المرض إذ نصحه جار له بألاّ يشرب الدواء الذي أعطوه إياه لأنه سمٌّ قاتل. وفعلا كما يقول ما أن أدار الطبيب ظهره حتى سكب كوب الدواء على طرف الفراش، فإذا البطانية تتحوّل إلى رماد.
"إنها الخيانة" تلك التي أودتْ بتركيا.

ويمجّد والدي ذكرى ذلك الضابط التركي الذي ظلّ على جبل الكرمل يقصف القوات الانكليزية ويمنعها من التقدم إلى أن اتّخذوا إليه سبيلا في شعاب الجبل وأسروه، فكان أن هنأه الضابط البريطاني على شجاعته وعلى أنه أدّى واجبه.

وتضيف أمّي وهي تروي عن أمّها كيف أن القرية خلتْ من الرجال تماماً، واستغلت النساء بدفن الموتى! وحين أسأل الوالد أين كان يومذاك، يجيبني بأنه كان صغيراً في أيام الحرب. ولهذا لم يذهب إلى الحرب. لقد نجا بسبب سنّهِ الصغير. ومع ذلك ضاع كما تقول أمّي حين توفي جدّي هو وإخوته. وبدل أن يحفظ لهم عمّهم الأرض اشتراها بمبلغ من المال.. وبذروه!

سلسلةٌ من الخياناتِ تكفي لتفسير نشأة الكون نفسه وليس ضياع هؤلاء الفلاحين فقط. إنهم يجدون لذّةً في تفسير كل شيء بالخيانة. فلولاها لم يكونوا هنا ولم تفرق بهم السبل.
إلا أن لأمّي تفسيراً نسائياً خاصاً، فقد كانوا ظلمة إلى حد كبير. وتتذكر فلانة التي قتلوها عند البئر. " ياويلهم من الله". وتتذكر الذين أحرقوا المحصولَ بليل، وتكره خاصة حمولة أو حمولتين من حمائل القرية، ولاتذكر اسم أي منهما إلا مصحوباً باللعنة. ولا أدري لماذا حتى هذه اللحظة.

كيف أنقذ هؤلاء الأواخر المشغولين بالخيانة واللعنات من الظلام الذي رأيتهم يلجونه وهم يبكون أو يتحسّرون أو ينشجون بصمت..؟

الشيخ حمزة يعود مرّةً أخرى، ويخرج من بيته هادئاً، قصيراً بلحيةٍ بيضاء، يداه خلف ظهره، يقلّبُ طرفه في ما حوله، وحيداً. ولا أتخيّلُ أحداً معه وهو يصعد إلى أعلى ويترك القرية في هدوئها أو صخبها، صاعداً بين الصيافير ومتوغلا في الخضرة المعتمة، وحين يتعب يتوقّف أخيراً ويجول بطرفهِ بعيداً.. فعلى يسارهِ البحرُ والصليبيون، وإلى يمينهِ مرج ابن عامر، وتحت قدميهِ تتنفس أمّ الزينات بحشرجةٍ وتنقبض وتتسع بين أغراس الزيتون.

في هذه الطرق كما يقول والدي وحين يسافر المسافر، يحدث أن يصادفه الضبعُ فيقترب منه إذا رآه خائفاً، وشيئاً فشيئاً يتمسح به وقد يبول عليه. ثم يصرخ في وجهه فينضبع الرجل، وتكون تلك النهاية فيأكله الضبعُ أو يقوده إلى مغارتهِ ليأكله على مهله.
"وصادفتُ مرّة ضبعاً" يكمل والدي.." فصرختُ في وجهه، ففرّ هارباً. وكان لصوتهِ وهو يهرب هديرٌ وحشرجة".

ومرةً، ولا أذكر اسم ذلك الذي صار بطل هذه الرواية، كان الرجلُ على فرسه. وفجأة اعترضَ طريقه كائنٌ هائل مثل عمودٍ من دخان أو قطعة من الظلام، فتراجعت فرسه، فسحب بندقيته وأطلق رصاصة. وفي الصباح وجدوا الرجلَ متيبساً على فرسهِ. ولم يكن أمامه غير نعلِ حذاءٍ مثقوب.

الشيخ حمزة لايزال في مكانهِ.. هذا الغامضُ الذي يقرأ الكتبَ كثيراً، بينما تنقل الريحُ إليهِ روائح الدخان، والنداءاتِ البعيدة التي يطلقها العائدون مع الغروبِ من كرومهم. لعله كان مثلي يودّ إنقاذ هؤلاء من العتمة.. وإعطاء روايته مداها. ولعله مثلي كان يبحث عن أشخاص يستمعون إليه، أو لعله كان مجرّد معتوهٍ ضائع في قرية منسيّة. من يدري؟

المهم أنه قالها.. أو هكذا نُقل عنه. " ستخرجون منها، وسيتحوّل وادي الملح إلى غابة.. ولن تعودوا إلا إذا وضع العربُ يدهم بيد المسكوف".

الحاج أبو خليل قطْرَزَ وهو صغير.. أي اشتغلَ مع الحرّاثين، حين نصحه أحدهم أن يترك المدرسة. ويتمنى شاعرٌ أن يكونَ قطروزاً لقطيعها ولا أدري من هي. ويتأسف الحاج بسبب هذا الجهل الذي جهله حين تركَ العلم. ويبدو ابنه خليل مطيعاً.. فهو الكبير الذي تحوّلتْ صلعته إلى مايشبه الشمّامة.. وما زال يطأطيء رأسه أمام والده الحاج، ويستمع إليه بانتباه وهيبة.. ذلك القطروز الذي اشتغلَ مع الحرّاثين.

ومع ذلك فإن لخليل حكايات حين يتحدث. إنه متعلمٌ نوعاً ما، ولديه بضعة كتب، ويروي بنبرةٍ هادئة حدثاً لايزال يؤرّقهُ كما يبدو. ففي إحدى الليالي التي هاجم فيها اليهود إجزم اختلط الناسُ ببعضهم البعض، ولم يميّز أحدهم الآخر في الظلام. وكان أن أطلق رصاصة على أحد زملائه. وأدرك خطاه فوراً، ولكنه كتم الأمرَ. يقول.."ثم ذهبتُ إلى شيخ واعترفتُ له بالحادثة. وأفتى الشيخُ بأنه لايحمل إثماً لهذا السبب، ولكن عليه أن يؤدي كفّارةً ما".
ألهذا السبب كان كثير الصلاة، خشناً في عقابنا حين نأتي على ذكر الله بما لايليق؟ كان جافاً إلى درجة كبيرة. يستمعون إليه.. وخاصة في تعليم البنات وطريقة تربية الأولاد. وحين ورثتُ بعضاً من كتبه التي تنقلتْ معه كان معظمها قصصاً عن حياة الأنبياء.. وكتاباً واحداً من جزئين عن عصر المأمون. ومع ذلك لاأتذكر إلا أنه كان جافاً.. يخشاه الجميع في العائلة.. صارماً لايكاد يبتسم إلا حين يجتمع مع الكبار في مثل سنهِ او أكبر.. لقد تركَ كتباً.. وخوذةً عسكرية أتذكّرها الآن وقد ألْقيتْ مهملةً حين اكتشفتها في غرفة مهملاتٍ مغلقة.. كان في الخوذةِ بعض ماءٍ مازال يرقد في قاعها. ولاحظتُ وأنا أقلّبها لونها الأخضر، وبطانتها الداخلية المتآكلة. ولم أجرؤ على السؤال عنها.

"كنّا قرب الحدودِ اللبنانية".. هكذا كان يبدأ قصته وأحدسُ أنها قصة الخوذة أيضاً.."حين دخل الجيش اللبناني وقد غطّى جنوده أنفسهم بفروع الشجر، واتّخذوا مواقعهم كما يتّخذها أي جيش يودّ أن يقاتل، تنفسنا.. وقلنا الحمد لله.. هاهم قد جاؤا أخيراً. وسلّمناهم الموقع فشكرونا ثم أخذونا إلى خيمة كبيرة. وهناك جمعونا بعد أن جمعوا أسلحتنا. قال أحدنا ياجماعة قلبي يحدّثني بشيء. قلتُ تعالَ لنرَ. خرجتُ من الخيمة فإذا بالجنودِ يحيطون بنا. ونهرني الجندي.. إلى أين؟ عدْ إلى مكانك. وعرفتُ أننا أسرى. وفي اليوم التالي قادونا إلى الشاحنات.. ومنها إلى قلعة حلب. وهناك أُطلق سراحنا فعدتُ إلى الأردن والتحقتُ بالجيش الأردني".

تقول التقارير الصهيونية الرسمية عن منطقة الكرمل.."لقد تضاءلتْ سيطرةُ العربِ شيئاً فشيئاً.. ولكن بقي هناك في الكرمل عددٌ من القرى العربية الجريئة والعنيدة، وهذه القرى لم تصمدْ فحسب بل واصلتْ منع حركة مواصلاتنا على الطريق الساحليّ".

وأتذكرُ الآن ملحوظات أمّي عن عقول أهل إجزم العنيدة. وأكتب.."أخيراً وجدتُ من يذكر هؤلاء المجهولين وإن بهذه الصيغة"، فقد كان خليل من أهل إجزم.. من هذا المثلث الصغير الذي أطلقتْ عليه التقارير الصهيونية اسمَ المثلث الخطر..عين غزال/إجزم/جبع.
عاد خليل إذن مرّةً أخرى. وهذه المرّة في صفوف الجيش الأردني، بعد أن أبعدوه عن الشمال ها هو يعود إلى الوسط. يقول.."في أحد المواقع أسرنا يهودياً فقال إن المنطقة خالية من هناك إلى بئر سبع من أي قوات يهودية، لقد توجه الجميع إلى الجنوب. وكان فرصة. ولكن لا أوامر".

وأكثر ما كان يحزنهُ حين يقصّ كيف أن طرد اليهود من القدس كان أمراً محققاً. يقول.."تقدمنا واكتسحناهم تماماً، فطلبوا منّا العودة إلى مواقعنا. وحين رفضنا بدأتْ مدفعيتنا تقصفنا. وقد قُتل منّا كثيرون".

الخيانة دائماً. إن الفلاّحَ لايفهم الحياة إلا عبر لونين: الأسود والأبيض.. الخيانة والأمانة. وبهذين اللونين يفسّر لوحةَ الألوانِ كلّها.. وحتى تلاوين قوس قزح. فلماذا يوجد البنفسجي؟ والأحمر؟ والأصفر؟ وبقية الألوان؟ إنها توجد بفعل كيمياء الصراع بين الأبيض والأسود. ومع ذلك فإن أمّي لم تكن ترتاح إلى هذه الألوان المبهجة.."لِبْس الكمال" كما كانتْ تقول.."هو هذه الألوان" وتعني بذلك الرمادي.. والبنّي.. وربما الأسود، بسبب الحسرة الدائمة.. وأسألها.."ولكنكم في فلسطين كنتم تلبسون الزنّار الأحمر.. والثياب المطرّزة؟".. فتردُّ عليّ.."ذلك كان في البلاد".

سيكون على بقية الشعب إذن أن ترفد عتمتنا بالألوان فيما بعد، رغم أن أمّي لاترتاح إلى ذكرياتها. وأكاد أتهمها بالجهل إلا أنني أتوقف أمام نصاعة الحزن وبهجة اكتشاف الحقيقة.

تتقدمني الآن وهي تصل إلى جنين. ثلاث أخوات وطفلان في أحد بساتين جنين تحت شجر اللوز يلتحفون السماء في بداية الصيف.. تقول أمّي.."كنتُ في الصباح أجمع ما يتساقط من اللوز، وأضعه جانباً في كومة وأمنع البنات من أكل أي حبة منه. وكانت صاحبة البستان تأتي وتأخذ اللوز بدون أن تقول خذي هذه لبناتك".

تتنهد أمّي. وأستشفّ بين تنهداتها ذلك الاحتجاج الصامت على الجحود الإنسانين على غياب الرحمة والشفقة.. ذلك الاحتجاج الذي لاتبوح به لأن كرامتها لاتسمح لها بالشكوى. وتنقذها الأختُ الكبرى فتروي قصة النسوة اللواتي تذاكرن أسماء البنات الصالحات للزواج فيأتي ذكرُ إحداهنّ فتقول امرأة.."البنتُ جميلة.. ومؤدبة. ولكن ياخسارة! إنها لاجئة".

في أي الفصول نحن؟ وفي أي الأزمان؟ كل شيء يبدو كما لو كان خارج هذا العالم.. من عمق ذلك الظلام الذي اجتاحنا. ولابدّ من الغوص فيه حتّى جذوره.

V

في ذلك المساء الذي خرجَ فيه الشيخُ حمزة صاعداً الجبلَ ويداه خلف ظهره مفكّراً، كانت أمّ الزينات تدعم متاريسها بالمزيدِ من الحجارة فتقيم على أطرافها السناسلَ الحجرية مثل تلك السناسل التي يقيمها الفلاحون حول كرومهم وحواكيرهم لمنع الضباع من إتلافِ المزروعات وللتدليل على حدودِ الملكية، وظلتْ السنسلة موجودة في الحكايات.. فهي حاضرة دائماً عندما تُذكر الأفعى التي اختبأتْ في السنسلة، أو الثعبان الأسود الذي انتصبَ على ذيله، ثم رمى نفسه من فوق السنسلة فإذا هو في قلبِ الصبر.. ولكن على مبعدةٍ من هذا العالم المشغول بإقامة السناسل الحجرية وتناقلِ أخبار هجمات اليهود على حوّاسة وإجزم وعين غزال، وفي المساء نفسه، كانت طائرة سكايمستر أمريكية يملكها رالف الإبن من نيويورك تهبط في مطار براغ وحمولتها سبعة أطنانٍ وتحيط بها حراسةٌ تشيكية مشدّدة. لتقلع من ثم فوق القطاعين الأمريكي والبريطاني في أراضي ألمانيا المحتلة، ثم تتابع سيرها جنوباً إلى مطارٍ قديم لسلاح الجو البريطاني في بيت داراس في فلسطين.. وتحطّ هناك بمساعدة أنوار للإضاءة. وعلى بعد خمسة عشر ميلا كان مخيم المشاة البريطاني لايلاحظ شيئاً. ويتم تفريغ الأسلحة والذخيرة وتحمل إلى مستعمرة بيرطوفيا اليهودية القريبة على عجل.

وتهبّ نسماتٌ من البحر، ويزدادُ الليلُ حلكةً، قبل أن يتّخذ الشيخ حمزة طريقه مرّة أخرى منحدراً إلى القرية. أكان يرى في وجومه هذه الرؤيا؟ أم كان مجرد معتوه عاد من الأزهر قبل أن يتمّم تعليمه وأهل القرويين بحمولته من مخطوطات النحو والمنطق؟

يتحدّث أبو جيدة، السائق الذي يخشى أن يفاجئه الشرطي بدون نظارات، عن رجل عالم يلقي عليهم بالألغاز، غزير المعرفة إلى درجة محيّرة.. فهو يسأل.."إذا أخذنا جثة وتركناها تتحلل إلى أن تتحول إلى تراب ثم زرعنا في هذا التراب بندورة مثلا، هل يجوز الأكل منها أم لا؟"..فأقول.." آه.. طبعاً!".. فيرد أبو جيدة:

ـ لا المسألة ليست بهذه الشكل

ـ إذن إليك الجواب. لايجوز أن نأكل منها

فيهزّ رأسهُ ويقول:

ـ وهذا أيضاً ليس بجواب
ـ ماهو الجواب إذن؟
ـ لاأدري!

فكّرتُ بهذا الرجل المشغول بألغازه.. وبهذه المجموعة القروية التي تجتمع كل ليلة تقريباً، وأنا أتتبع خطى الشيخ حمزة وحركة الأضواء وهي تمهّد لنزول الطائرة، وشعرتُ بأنني لاأستطيع التوفيق بين الزمنين.. بين نداوة تلك الليلة وخضرتها وبين هذه المجموعة التي تتناقل أخبار المذهلين من الناس.. الناس اللاجئين.
تقول أمّي.."كنّا نسمع أصواتهم تتنادى.. كاديما.. وتنهار السناسلُ.. يدوّي صوت يشبه الهدير.." ويهرع القرويون إلى كل الجهات يتفرقون ويجتمعون.. ويهرع أخي الكبير تاركاً البلدة عائداً إلى البيت، فيمسكه أحدهم.. ويصرخ به.."إلى أين؟ لقد ذهبوا جميعاً" ويعني بذلك الأهل القابعين في ذلك البيت على طرف أمّ الزينات.." امسكته الله يرحمه من قميصه.. ولكنه اندفع لا يلوي على شيء.."
وكان البيتُ خالياً. لاأحد يكمل القصة أو يجمع خيوط الرواية. ففي حلكة الليل صحوتُ على أحدهم يحملني. وبعدها كان صباحٌ باكرٌ وضباب تسميه أمّي غطيطة، وتفسّر بعضَ ما رأيتُ وتسميه.. فذلك المكانُ هو في الطريق إلى الدالية.. وذلك الرجل الذي كان ينادي بين الصخور هو محمد القاسم.. ومن كان يحملك هي أختك الكبيرة. ولا تتضح الصورة رغم هذه المسميات. وأشعر كما لو أن الأمر كلّه حادث حدث أو لم يحدث بعد.

وأقرأ فيما بعد أن الكتيبة الرابعة من لواء غولاني هي التي كُلّفتْ بتدمير أمّ الزينات ليلة 1948/5/15. ولكن أمّي التي لاتعرف هذا والتي لن يضيف لإحساسها جديداً ذكرُ هذه الأسماء، تظل غارقة في ثرثرتها لتضيف تفصيلا هنا أو تفصيلا هناك وكأنها تطّرز فستاناً فتتذكر أن الشيخ حمزة لم يكن قارئاً فقط بل كان طبيباً أيضاً وذا حسٍّ جماليّ أيضاً، وكثيراً ما كان يمرّ على بيتنا، فيشير إلى الصغير الذي تحمله أمّي قائلا.."من أين لكم غزال جرماشة هذا؟". وجرماشة هذه أعرف أنها موجودة في مكان واحد فقط هو حديث أمّي.. كما أشياء كثيرة لاوجود لها إلا في رواياتها. ويعجبني أن يكون هذا الصغير الذي هو أنا غزالا في يوم ما. ولكن لماذا جرماشة هذه؟ يبدو أنها مكانٌ تكثر فيه الغزلان ربما كان في الروحة التي هي المرعى والمنتزه كما يبدو، وربما كان في الجزيرة العربية. ولكن جرماشة حين تنطقها أمّي تشير إلى مكان مألوف. نسيتُ أن أسألها يومذاك عن مكانهاعلى الخارطة، كما نسيتُ أن أستفسر عن أشياء كثيرة بسبب أن كل شيء كان يبدو غريباً وفريداً من نوعه، لايترك مجالا لغير الإصغاء، فماذا حدث للشيخ حمزة؟ وماذا حدث لحمولة البشر وآل ماضي؟ وغيرهم..؟ الآن فقط اتذكر أن تفاصيل كثيرة مازالت غائبة ربما لأن العاطفة التي تروى بها الأمُّ هذه الروايات كانت تدفعها إلى تناسي أشياء وأشياء متعمدة، وأذكرُ أنها حين كانت تتذكر مَنْ من أمّ الزينات استشهد في الثورة قاطعتها لأسألها عن شخص أوردت اسمه.. وماذا كان يعمل. ورأيتُ منها كراهة للسؤال بدون مبرر، وأخيراً اضطرتْ للإعتراف أنه كان صاحب بقالة. هل يعتقد القرويون أن البطل الأسطوري لايمكن أن يكون مثلنا ومن هذا العالم تماماً؟ ربما. ولكن هذه الحادثة جعلتني أسترجع مواقف مشابهة.. كان صوت أمّي ينقطع فيها فجأة كأن الأحاديث عن المقدسات لايصح أن تكون هكذا.. وأن لها طقوسها ومرسيمها، وزمنها أيضاً.. والزمن لايأتي دائماً. إنه المؤجل إلى حين.

إذن كانت السناسل تنهار في تلك الليلة، ويفقد القرويون صوابهم، ولكن المقاتلين منهم لم يسلّموا بالهزيمة، فقد عاد عدد منهم إلى أمّ الزينات في الصباح. تروي أمّي ان أحدهم عاد إلى بيته بكل

بساطة كأن اليهود غير موجودين أو كأن أحداث الليلة السابقة لم تكن إلا حلماً، فاصطدمَ باليهود، وطاردوه بين أحراج الزيتون، فظل يشاغلهم ببندقيته الوحيدة بدون أن يدرك أنه يواجه كتيبة وليس رجلا واحداً، وأخيراً اضطر إلى الهبوط في بئر، وظل هناك طيلة النهار، وهم يروحون ويغدون فوق رأسه إلى أن جنّ الليل، فتسللَ مغادراً قريته وليبتلعه الليل بعيداً.

عرفتُ فيما بعد أن الشيخ حمزة ظلّ هناك. ولكن كيف.. وأين؟ لاأدري. وظلّت عدة عائلات.
تقول أمّي.. حين وصلنا إلى جنين أرسلَ إلينا محمود الماضي رسولا يطلب منّا العودة ويقول إنه أخذ الأمان لنا من اليهود. ولكن لاأحد فكّرَ بالعودة. من هو هذا الذي تصفه أمّي بالخائن؟ سيكون عليّ بعد سنوات أن أسمعها تردّد بحسرة.."ليتنا متنا هناك ولم نأتِ إلى هذه البلاد".

إذن فقد كان محمود الماضي هذا على حق رغم أنه كان يودّ استعادة فلاحيه ليظل صاحبَ أراض وزعيماً. وتظلّ السناسل ذات شخصية أبقى من أسماء الأشخاص، فهي حاضرة دائماً، يتحدثون عنها كأنها مجرد كومة من الأحجار المهشمة التي تنهار عند أقل دفعة كما في هجوم اليهود، ويتحدثون عنها وكأنها جدار صلب يقف عاتياً، فيمنع هذا من غزو أراضي ذاك. أتخيلها مجرد حجارة تغطيها الأعشابُ تنحدر متلوّية بين الكروم وعلى حافة الطرق.. وكأنما أُقيمت هناك بالصدفة أو أن أناس العصور القديمة تركوها لنا قائمة تتناسل بالصدفة الموحشة.

والحقيقة أن حديث السناسل والأماكن في روايات أمّي يكاد يكون حديثاً عن أماكن موحشة لايسكنها البشر، فهي تتحدث عنها كأنها ملكٌ شخصي لها، فلا أكاد أتخيّل سنسلة غير معروفة أو أن غير المعروف لايرد في الرواية.

إن تفاصيلَ كثيرة تغيب ليس لنها غير موجودة وإنما لأنها فقط لاتتعلق بنا أو لا شأن لنا بها، فأين تقف حدودنا وأين تمتد؟

لسنا شاسعين ككون، ولكننا أشبه بسكان الجوز الأقزام الذين بنوا بيوتهم ومصائرهم بين جدران حبّاتِ الجوز فاجتاحهم الطوفان، وقوّض مساكنهم، وما عرفوا حتى هذه اللحظة ما حدث ولا كيف حدث.

".. كنّا نلتقي في الروحة" تقول أمّي.." وكانوا يجمعون العكوب.."، وتبدي استغرابها أنهم عرفوا هذا النبات الفلاحي الخاص، هؤلاء الذين تشير إليهم بوصفهم سكنوا القبّانيات، فالشيطان وحده يعلم من أين جاؤا. "كان الواحد منّا حين يسأل أحدهم إبن من أنتَ، كان يقول أنا ابن الجميع". وتعلّق أمّي.." كانوا لاأحد يعرف أباه أو أمّه. أما يهود بلادنا فكانوا يتحسّرون ويقولون.."إننا نريدكم أن تبقوا، فنحن لانحب هؤلاء الغرباء".

ويعزّي أحد المتحدثين الجماعة المتحلقة حول نار الأحاديث فيروي أن يهوديا من البصرة حدّثه عن أقرباء له ذهبوا إلى فلسطين.. كتبوا له قائلين.."إذا أردتَ أن تعرف كيف نعيش فاذهبْ وشاهد مخيمات اللاجئين.." وضعهم ليس أحسن من وضعنا. هكذا كانت الجماعة تتنفس بارتياح ريثما يأتي الغد.. أو بعده. كم يبدو ذلك الزمن صدئاً وأبله بلا معنى.. هوة متسعة يسبح في فضائها هؤلاء الذين سيكونون أهلنا وجيراننا ومعارفنا.. أقزام في حبّات الجوز.. أُطلقوا فجأة خارج مساكنهم لأسباب لايعرفونها.

ويتمتم الحاجُ أبوخليل ومسبحته ترتجف بين أصابعه.."لا أحد يعرف معنى السبعة المقصودة. فقد جاء في الحديث ستعودون بعد سبع.. وسبع..وسبع.. أهي سبع ليال أم أيام.. أم أشهر.. أم سنين؟ الله أعلم!".

وأحسبُ السبعة هذه أة السبع وأتساءل.. ماتعني؟ فقد مرّت إذا كانت أياماً، وكذلك مرّت إذا كانت أشهراً. أما من السنين فقد مرَّ أكثر من أضعاف السبع سنوات. إنها لغزٌ آخر مثل بقية الألغاز التي يلقيها أبو الهول الصخريّ هذا.. أعني الزمن الذي لانهاية لامتدادهِ.. أبو هولنا المتحرك الذي وَرَثَنا بعد أن أعجزَ آباءنا.. وربما يظلّ يعجز أحفادنا. كلّ شيء نورّثه لهذا الزمن ونترك له ما نملك شيئاً فشيئاً.

لقد رأيتُ الكثيرَ من الصامتين والمأخوذين والراكضين والعابثين والباكين في أحضانِ أبي الهول هذا.. وكأنه بألغازهِ يلقي بالسكونِ على أعماق كلّ هؤلاء ويسجنهم إلى الأبد، ويسجننا نحن الصغار في انتظار أن نكبر، فيأخذنا من آبائنا وأمّهاتنا، ويحوّلنا إلى تماثيل في غابته الحجرية.

V1

هكذا وجدنا أنفسنا في الغابةِ الحجرية.. كل شيء مسكونٌ إلى درجة أن أي حركة يمكن أن توقظ أبو الهول، وتجعل الحجارة تتكلم، والشجر ينحني ليمسك بأطرافِ ثيابنا، والتراب يتنفس. وتعجبُ أمّي من قوّةِ قلبها كيف عاشتْ في ذلك البيت المنعزل على طرف أمّ الزينات في وادٍ موحش أسفل القرية، يستطيع الانكليز أن يطلوا عليه وعلى ما حوله، ويشاهدوا العم محمود وهو يخرج من بيته حاملا شيئاً ما، ليلقيه بين الشجر، فينحدرون ببطء، ويصلون إلى المكان، فإذا الشيء بندقية، وإذا بهذه البندقية تسحب الوالد إلى حيفا، ليتعرض للتحقيق والضرب.. ليدلهم على صاحبها. ولايعرفون حتى هذه اللحظة.."لقد ظل يحتفظ بها.. فلا هو ذهبَ مع الثوار ولا هو تخلّصَ منها".

هكذا تتكرر الحكاية. ولكنني لاأفكر بها، بل في المكان.. في تلكم الأجمة التي ألقيتْ فيها البندقية وذلك المرتفع الذي أطلّ منه جنود الانكليز وفي كثافة الشجر، وهل كان الوقتُ صباحاً أم مساءً؟ إنني أفكّرُ بالمكان الذي تنبضُ فيه الحجارةُ وتسيلُ فيه مياهُ العين.. وتصعد فيه الطرقاتُ الوعرة، ففي كلّ قصةٍ وحديثٍ، يتحركُ الأشخاصُ في مشهدٍ غامض وتخترق القصة والحدث صيافيرُ وزيتونٌ وسناسل، وأصوات سكون يكاد يكون مطلقاً. لم ينتقل إليَّ الضجيجُ ولا صوتُ آلاتِ الدراسة، ولا مشهدُ الجموع الفلاحية التي جمعتْ الزيتون وما زالتْ تجمعه منذ آلاف السنوات، ولا حتى الأعراس التي يتحدثون عنها.. إن ما انتقلَ إليَّ هو السكونُ نفسه ذلك الذي يخيّمُ الآن على أحراج الزيتون. ويتحرك المشهدُ حين تقول أمّي.."كان الثواريمرون علينا فأعدّ لهم طعام العشاء.."، فأتخيّل مجموعة من الرجال الغامضين على ظهور الخيلِ يستريحون قليلا في هذا الوادي البعيدِ عن القرية وعن الطرق الرسمية ثم يجمعون أنفسهم وينطلقون إلى حيث لاأدري، وتكمل الكتبُ بقية القصص أو تحاول ذلك. ولكنني لاأجد أمّي في هذه القصص.. ولا أجدُ قريتنا بل لاأجد غير أسماء.. أسماء لاينبض فيها حجر، ولا يتوعّرُ فيها طريق، ولا يكون فيها وقتٌ ولا دخانٌ ولا عشاءٌ ولا سؤال عن بندقية. إن تفاصيلنا لم تُكتب حتى الآن. ألم أقل كأننا لسنا من هذا العالم؟ إننا كائنات أخرى انفصلتْ عن التراب، وتزاحمتْ حولها الأبجدية وحكايات الجنّ والأماكن المسكونة.

لم يكن ذلك اليوم الذي جاء فيه الانكليز وأطلّوا على الوادي ساكناً بالطبع بل كان يضجّ بالحركة، ففي ذلك النهار الطويل كان أبي يواجه صوصة في حيفا، وكان بعض أبناء العائلات المحظوظة يقفون في مطار اللّدِ بانتظار الطائرة التي ستأخذهم إلى كيمبرج لإتمام دراستهم. وكانت معسكراتُ المجنّدين قربَ براغ في تشيكوسلوفاكيا تعجّ برجال العصابات الصهيونية وضباط من جنسيات

أمريكية وروسية للتدريب.. وكان مطار رياق اللبناني في البقاع مشغولا بإعدادِ الأضواء اللازمة لهبوط الطائرات ليلاً، وإعدادِ الشاحنات لنقل الأسلحة المقبلة إلى المستعمرات اليهودية.
العالمُ كلّه خارج حبّات الجوز منهمكٌ في حركة متواصلة تتجمع خيوطها حول هذه الرقعةِ الصغيرة من الأرض التي اسمها فلسطين المسكونة بحجريتها وبأبي الهول القابع وهو يلقي أسئلتهُ غير المفهومة على فلاحيها ولا أحد يُجيب.. لا الشيخ حمزة ولا أبو درّة.. ولا الحاج القطروز الذي ظلّ آسفاً لأنه ترك الدراسة مبكّراً وقطرزَ وراء الحرّاثين.. ولا أمّي نفسها التي شاهدتْ مؤونة بيتها لموسم كامل تضيع في الشيد والتراب.

كانوا يسمونها القبّانيات فحسب، ويعرفون أن يهوداً غرباء غير يهود البلاد يسكنون فيها خارج أحلام الفلاحين وترابهم وملحهم ومائهم.. خارج الفتن وصراع العائلاتِ وهموم تعليم الابن الأكبر.. كانوا يسكنون فحسب، غامضين لم يتضحوا بعد. أما الواضح فكان هذا الطوق الانكليزي الذي يأتي بين فترة وأخرى.

يقول أبي.. كان معهم جنودٌ سودٌ من السنغال، وهنودٌ من السك، ويوماً التقيتُ بواحدٍ منهم بلحية كثيفة جالساً على حجر فسألته عن دينه، فقال سك والحمدُ لله. ويضحك والدي. كيف يكون من السك ويحمد الله؟ جنديّ مجهول.. كما هم المئاتُ الذين يرقدون الآن تحت نصبٍ في مقبرة نظيفة مزروعة بالأشجار ومعتنى بأعشابها على أطراف بغداد.. مئاتٌ جمعوا تحت نصب واحد كتب عليه بالانكليزية أنهم ضحوا بحياتهم في سبيل المملكة! أي مملكة هذا التي جاء هؤلاء الهنود إلى بغداد ليضحوا من أجلها؟ لابدّ أن ذلك كان في زمن قديم لاحدودَ لأطرافهِ. مئات الهنود يرقدون الآن مكومين أو رماداً تحت هذا العمود الحجري في بغداد. وعلى الأنصاب الحجرية أقرأ كلمات محفورة في الرخام.." زوجتك المحبة التي لاتنساك".."أيها الموتُ.. أين لسعتك القاتلة؟ أين انتصارك؟".. أبياتٌ من الشعر الانكليزي كتبها طبيبٌ اكتشف علاج الملاريا، مزهوا بانتصارهِ، فما الذي جاء بها هنا؟ وأي غباء جعل هذه الزوجة أو الأم أو الحبيبة تنقش هذين السطرين المتعلقين بالانتصار على البعوض.. على شاهدة ضائعة تحت شمس الشرق؟ أكانت تظن أنهما كتبا لرثاء الشهداء أو لتمجيد المحاربين؟ يالهذا الحزن الذي صعد مثل غيمة وبلّلَ وجه الأرض قبل خمسين عاماً أو أكثر، وتبدّدَ عندما تبدّدَ من يحمله وما عاد حزناً!

إن الأحفادَ الذين يلمحون طرفاً من هذه الغيمة في سكون الجدّة أو الأمّ، هم أقلّ الناس احتفالا يأخذ نصيبهم من هذا الحزن أو هذه المشاعر بالزهو، فلهم سيكون نصيبٌ في حل الألغاز ومواجهة مسائل الوجود بنضارة غير مسبوقة وعليهم أن ينتظروا قبل الدخول في هذا الليل أو عليهم أن يحتفظوا بشيء غامض لا أدري ماهو.. قد يكون هذه اللامبالاة.

وأحسب بدقّة كيف أن جندياً يموت في الحرب الأولى، سيعيش حسرةً في قلب أشخاص قريبين منه.. ولكن حتى هؤلاء مصيرهم أن يموتوا.. فما الذي يبقى إذن؟ أهو حزننا الخاص هذا الذي يرافقنا الآن أم هو شيء ورثناه من الماضي.. ماضي الأمّ والأب.. وما خلفهما من آباء وأجداد ضغطوا بكل ثقلهم ليظللوا أحياءً في هذه المرارة غير المفهومة؟ سيقول والدي.."أنحن أصحاب أحزاب وتحزبات وما زالت الضباعُ تأكل جثث رجالنا؟". ويبدو لي هذا التعبير بليغاً، أو شبيهاً بحكمة تُقال لترسم سلوك حياة كاملة. وما بعد هذه الحكمة هو الصمت.. الصمتُ إلى الأبد.